لم يعد الفيلسوف النمساوي هانس كوكلر غريبا على الساحة الثقافية والفلسفية، ذلك أنه حاضر فيها منذ أكثر من ربع قرن بانتظام، مباشرة بتقديمه لمحاضرات مختلفة في مؤسساته الجامعية أو بنشر ترجماته من طرف مغاربة. ومنها بالخصوص: «تشنج العلاقة بين الغرب والمسلمين. الأسباب والحلول»، «الشك ونقد المجتمع في فكر مارتين هيدجر»، «هيدجر وريبة الكينونة»، «العدالة العالمية أم الانتقام العالمي؟ القانون الجنائي الدولي في مفترق الطرق»، «هكذا تكلم كوكلر». كوكلر من طينة الفلاسفة الغربيين القلائل الذين نجحوا في التخلص من المركزية الغربية، وانتبهوا إلى الممارسات المجحفة للغرب تجاه الثقافات والحضارات الأخرى، وبالخصوص الثقافة العربية الإسلامية. يوظف كوكلر المنهج الفينومينولوجي بنفحة قوية من المبادئ النقدية العقلية في كتاباته، وهو متخصص في فلسفة القانون والفلسفة السياسية، ويعد من أحد أهم مؤولي هيدجر والعارفين بفلسفته.

### طالب الفيلسوف النمساوي أوربا بتجاوز إرث الحروب الصليبية وتوديع نزعة المركزية الأوروبية

# هانس كوكلر: المغرب كان دائما مثالا للثقافة العربية الإسلامية

حاوره حميد لشهب

■ خصصتم حيزا لا يستهان به من تفكيركم لمعالجة الإشكاليات الفلسفية المرتبطة بالتقنية. إلى أين يقود منطق التكنولوجيا الحالية؟

● **يكمن «منطق» التكنولوجيا في تركيزها على الكفاءة في إتقان سيطرة الإنسان على الطبيعة وفي الزيادة القصوى في إمكانيات العيش للجنس البشري. ويعني هذا فقدان الإنسان لعلاقة مباشرة بالطبيعة. وتصبح هذه الأخيرة موضوعا فقط. تعني الإمكانيات التقنية المتزايدة في عصرنا أن الأخطار التي تهدد الإنسان من الطبيعة قد تقلصت أو يمكن السيطرة عليها، إلى حدود كون الإنسان يقع دون وعي في وهم إمكانية عمل كل شيء. ويصاحب هذا كبت متزايد للموت في مجتمع الحضارة التقنية. ويتم أيضا كبت مخاطر التدخل البشري في الطبيعة في هذا الموقف تجاه العالم، الذي يتسم بإرادة القوة المتطرفة. ومن هذه الزاوية، فإن «منطق» التكنولوجيا هو في نهاية المطاف لاعقلاني irrational ، لأنه يخفي الواقع الذي نعيش في ظله جميعا والذي لا يمكننا تغييره كما يحلو لنا.**

■ تربطون في كتاباتكم السيد البروفيسور كوكلر بين التطور التقني وكارثة بيئية لم تعد فقط محتملة، بل وأيضا حتمية. ما هي عواقب هذه الكارثة على الإنسان؟

● **الخطر الكبير هو أنه لا يمكن تقييم مدى تعقيد آثار التدخلات التقنية في الطبيعة، بحيث إن عواقب غير متوقعة قد تحدث، والتي بعد مستوى معين، تصبح غير قابلة للتحكم. ويوجد هذا الخطر على وجه الخصوص في الاستخدام المفرط للوقود الأحفوري مع كل ما يترتب عن ذلك من تغير في المناخ (الاحتباس الحراري)، وهذا بدوره يستلزم تغييرات في المناطق الصالحة للسكن على كوكب الأرض وفي إنتاج الغذاء. ويمكن أن تكون تدفقات الهجرة الجديدة عبر القارات واحدة من النتائج الأخرى لمثل هذا التطور، مما يؤدي إلى عدم الاستقرار السياسي في العالم. قد تحدث سلسلة من الأحداث التي، بمجرد وصولها إلى مستوى معين من التعقيد، تخرج عن نطاق السيطرة. المشكلة هنا هي أن البشرية لم تنجح بعد في حساب التفاعلات بين العديد من الأنانيات الجماعية وعواقبها الضارة على البيئة (مثل السياحة بأعداد ضخمة Massentourismus ، «ثقافة الهدر/التبذير Wegwerfkultur «) والتقليل من عواقبها الضارة. وهذا يتطلب توجهاً نحو الصالح العام للبشرية جمعاء - بما في ذلك الأجيال القادمة - بدلا من الإصرار على فرض المصالح الحالية بلا رحمة. ويتحمل المجتمع الاستهلاكي والمتعة، وهو نموذج للحضارة التقنية الصناعية -لا يزال يروج له النظام السياسي الغربي-، جزءا كبيرا من المسؤولية هنا.**

■ في تأملكم لمنطق التقنية ترون أيضا بأنها تتضمن خطرا تدميريا حقيقيا، أين يكمن هذا الخطر في نظركم؟

● **بصرف النظر عن المشاكل البيئية والتدمير طويل الأمد لأساس الحياة، والذي أشرت إليه سابقا، فإن التطوير الإضافي لتكنولوجيا الأسلحة منذ عام 1945 قد جلب معه خطر محو الجنس البشري لنفسه بنفسه. وتكمن اللاعقلانية في هذا «المنطق» بالتحديد في حقيقة أن زيادة الكفاءة التي صممت التكنولوجيا من أجلها تعني أن الأسلحة متوفرة الآن - بمساعدة معرفة الفيزياء النووية-، وهي أسلحة يمكن أن تدمر الحياة على الكرة الأرضية عدة مرات. والتعبير الأمريكي «القتل النووي nuclear overkill « يعبر عن هذا بوضوح. إنه لأمر مزعج للغاية أن يتذكر المرء بأن أنظمة الأسلحة المصممة رسميًا للدفاع، يمكن أن تؤدي في النهاية إلى التدمير الذاتي لمن يستعملها.**

**يظهر عدم النضج الأخلاقي للحضارة التقنية ككل عندما يتم استثمار الطاقة العقلية لأعظم عباقرة البشرية (أعني هنا على سبيل المثال البحث في الفيزياء الذرية) ونسبة ضخمة من الموارد المادية في تقنيات التدمير. في الحقيقة إنه في العديد من مجالات التكنولوجيا الحديثة، لم يتم تحقيق المزيد من التطوير في الميادين المدنية إلا من خلال البحث في مجال تكنولوجيا الأسلحة. لكن هناك جانبًا ثقافيًا آخر يُظهر خطورة «المنطق» التقني. والشكل التقني، بتركيزه على الكفاءة، يتسبب في خسارة فادحة للإبداع الفني، كما نراه في كل مكان في العالم الصناعي. هذا واضح بشكل خاص في العمارة الحديثة. أصبحت مدننا «صحارى خرسانية Betonwüsten»، حيث تخلق البيئة المعيشة الاصطناعية تباعدا اجتماعيًا وتعزز الأمراض النفسية. في عالم المدن الاصطناعي غير العضوي، يفقد الناس ارتباطهم بالواقع بقدر ما تنفصل حياتهم عن العمليات الطبيعية: تأتي الكهرباء من المقبس LA PRISE، والطعام من السوبر ماركت، والمعلومات والاتصالات «الاجتماعية» من الهواتف المحمولة؛ يعتمد الإنسان كليًا على بنية تحتية لم يعد يفهمها ويبتعد عن الشروط الفعلية لقيام هذه البيئة. وسيجعل هذا أهل الحضارة التقنية عاجزين تماما، إذا فشلت هذه البنية التحتية، وقد يؤدي إلى الانهيار المفاجئ لنظام الدولة. إن العمليات والتدابير التنظيمية القائمة على القوانين الفيزيائية هي نفسها في جميع أنحاء العالم. ويجلب هذا معه المزيد والمزيد من توحيد Uniformitنا نمط الحياة والثقافة اليوميين. يتم تهميش أنماط الحياة التقليدية. وغالبًا ما يكون ثمن فقدان التنوع هو الاقتلاع deracinement الاجتماعي والثقافي، وفقدان الهوية. وليس من قبيل المصادفة أن طريقة الحياة الغربية - ما يسمى بـ «طريقة الحياة الأمريكية American way of life « - بدأت مسيرتها في نهاية القرن العشرين مع الانتشار العالمي للتكنولوجيا، بما في ذلك تكنولوجيا المعلومات وتطبيقاتها في الهندسة الاجتماعية.**

■ من بين إشكاليات الفلسفة الأخلاقية المرتبطة بالتقنية التي تذكرونها، هناك مشاكل التدخل في الجينات البشرية. إلى أين يقود هذا؟

● **تعني الهندسة الوراثية، في نهاية الأمر، بأنه بإمكان الجنس البشري التلاعب بنفسه بذاته. إذا لم يتم وضع حدود للتنمية، فسيتحول البشر أكثر فأكثر من كائنات طبيعية إلى كائنات اصطناعية. وبما أنه من غير الممكن التكهن بالعواقب طويلة الأمد لمثل هذه التدخلات على البشر، (وكذا فيما يتعلق بتنظيمهم الاجتماعي)، فمن الواجب وضع حد للبحث الجامح الذي تحركه المصالح الاقتصادية. كما أن المشاكل الأخلاقية المتعلقة بالكرامة الإنسانية للشخص لم تحل بالكامل. إذا لم يكن من الممكن أبدا تحويل الكائن البشري كذات إلى مجرد موضوع دراسة، كما أوضح إيمانويل كانط في فلسفته الأخلاقية، فإن التدخلات في المخزون الجيني غير مقبولة بشكل أساسي.**

**وهنا أيضًا، من الصحيح أنه لا يجب عمل كل ما هو ممكن تقنيًا.**

■ تدافعون في تنظيراتكم في الفلسفة السياسية على أطروحة مفادها أن منطق التقنية في الميدان السياسي يقود إلى «أوغارشية» واضحة وهو تهديد حقيقي للديمقراطية. أين يتجلى ذلك من فضلكم؟

● **إن العمليات والتدخلات التقنية المعقدة في الطبيعة، التي تميز التكنولوجيا الحديثة على المستوى العالمي، لم يعد من الممكن فهمها أو رؤيتها من قبل الفرد. وفي هذا الصدد، هناك حاجة لخبراء يمكنهم تقييم النتائج وتوضيح الظروف العامة للسياسيين، وهي ظروف يمكنهم على ضوئها اتخاذ قراراتهم. وهذا يعني حكم الأوليغارشية بمعنى «حكم الخبراء»، حيث لم يعد السياسيون المسؤولون الرسميون أنفسهم «مستقلين». وبهذا المعنى فإننا نلاحظ نسف ما يسمى بالديمقراطية «التمثيلية»، والتي هي في حد ذاتها حكم الأقلية (أوليغارشي). إذن في الحضارة التقنية لدينا أوليغارشية من الدرجة الثانية، تحكم الخبراء في الأوليغارشية السياسية. لا يحكم أي سياق ديمقراطي في قرارات هؤلاء الخبراء. من غير المفهوم في الغالب ما هي المصالح غير المعلنة (الاقتصادية، السياسية، الأيديولوجية) التي يمثلونها، تماما كما أنه من غير المفهوم كيف يختار السياسيون أصحاب القرار الخبراء (الذين غالبًا ما يكون لديهم آراء متعارضة حول نفس الموضوع). كل هذه التبعيات في عملية صنع القرار السياسي تعني في الأساس تقويض/نسف الديمقراطية بالمعنى الأصلي المتمثل في حكم الشعب نفسه بنفسه. فالمواطن الفرد -الذي يعتبر وفقا لفكرة الديمقراطية كذات لها إرادتها ووضعها المستقل- مصدر شرعية كل نظام دولة، يتم تهميشه كلما ازدادت العمليات التقنية والأشكال التنظيمية تعقيدا. وينطبق هذا بشكل خاص على تطبيق ما يسمى «بالتكنولوجيات الاجتماعية»، والتي أصبحت فعالة للغاية بمساعدة تكنولوجيا المعلومات (IT)، بحيث لم يعد الفرد (المواطن) يفهم كيف يتم التحكم في سلوكه كمستهلك وكيف يؤثر المرء على اختياراته السياسية. ويرتبط هذا أيضا بمشكلة الرقابة السياسية من قبل الشركات في قطاع تكنولوجيا المعلومات (مثل تويتر Twitter)، وهي رقابة لم يتم إضفاء الشرعية عليها ديمقراطيًا. ومن بين من أشار إلى هذا الأمر بقوة هناك الباحث Elon Musk أ. إيلون ماسك. وفوق كل هذا، تحتاج الديمقراطية إلى نضج المواطن الذي يجب أن يكون قادرًا على تكوين رأي راسخ، على الأقل فيما يخص المسائل الأساسية الكبيرة للمجتمع.**

> *تعتبر الساحة الثقافية والفلسفية المغربية من أهم الساحات بالنسبة لكم. لكم فيها علاقات ود وعمل. حاضرتم في كل جامعات المغرب تقريبا ودعوتم عدد لا يستهان به من المغاربة لمؤسساتكم الجامعية. ما هي أهمية هذا الأخذ والعطاء بين ضفتين المتوسط حاليا؟

■ «اخترعتم» مصطلح «التشرد الميتافيزيقي» في إطار حديثكم على التقنية. ماذا تقصدون به؟

● **من خلال البحث الأكثر دقة في قوانين المادة (الطبيعة)، استطاع الإنسان المعاصر تحويل بيئته المعيشية تقنيًا إلى الحد الذي يمكنه به من السيطرة على مخاطر الطبيعة بشكل أفضل بالمقارنة مع الماضي وزاد متوسط العمر المتوقع للفرد في العديد من المناطق. يقوم الإنسان بتوسيع مساحة فضاء عيشه على نطاق كوكبي – في ميادين كان يُعتقد منذ آلاف السنين بأنها مغلقة أمام البشر. إن «السيادة» الأكبر للإنسان على الظروف الخارجة عن السيطرة سابقا قد جلبت معها كبتا متزايدا للموت في الحياة اليومية وأضعفت الجذور الدينية للناس. أصبحت العديد من الأمراض التي كان يُخشى منها في السابق قابلة للشفاء الآن. لم يعد المرء يواجه احتمال الموت في كل لحظة. أصبح من الممكن الآن تفسير العلاقات في العالم الخارجي علميًا، والتي كانت تفسر أسطوريا، وأصبح من الممكن أيضا استخدام قوانين الطبيعة لتحسين الحياة.**

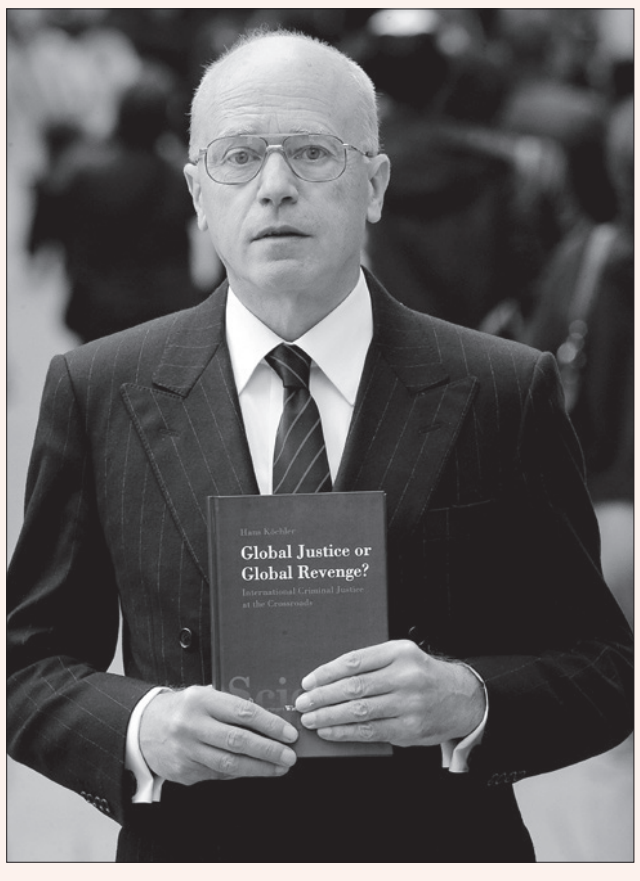


**ويمكن أن يؤدي هذا التطور إلى ثقة مفرطة للإنسان في نفسه، وحتى إلى تخيلات القدرة المطلقة فيما يتعلق بـ «تقدم» الجنس البشري. ويتضح هذا بشكل خاص في الحركات الباطنية/الإيزوتيرية esoterischen Bewegungen التي تشكلت حول وادي السيليكون في كاليفورنيا - مركز تكنولوجيا المعلومات في العالم - بنظرية «الخلود» التي أصبحت ممكنة بفضل التكنولوجيا، والتي لا يمكن أن تتحقق في الواقع أبدا. في اللاوعي الجماعي، يسير هذا جنبًا إلى جنب مع كبت شبه عصابي لمحدودية الفرد. ونتيجة ذلك هو خروج/تحرر الإنسان من ارتباطه بالكون. ولم يعد السؤال الخالد عن أصل كل كائن أي معنى مفهوم في مجتمع المرح المشيَّد تقنيًا و«المضمون». وهذا ما أعنيه بـ «التشرد الميتافيزيقي» للإنسان، والذي يركز كل جهوده في نهاية المطاف على الحاضر، متناسيًا مسألة ما هو أبعد من المادي المباشر.**

■ تعتبر الساحة الثقافية والفلسفية المغربية من أهم الساحات بالنسبة لكم. لكم فيها علاقات ود وعمل. حاضرتم في كل جامعات المغرب تقريبا ودعوتم عدد لا يستهان به من المغاربة لمؤسساتكم الجامعية. ما هي أهمية هذا الأخذ والعطاء بين ضفتين المتوسط حاليا؟

● **يعود التبادل الثقافي بين المغرب وأوروبا إلى العصور الوسطى، كما يتضح من تاريخ سلالة الموحدين التي حكمت أجزاء كبيرة من المغرب العربي والأندلس. وعلى سبيل المثال لا الحصر، تقدم أنشطة الفيلسوفين ابن رشد وابن طفيل، وكلاهما كانا على صلة أيضا ببلاط مراكش وشجعهما الخليفة في بحثهما، شهادة بليغة على ذلك. منذ شبابي، كان المغرب دائما مثالا للثقافة الغربية الإسلامية بالنسبة لي - كما كان بالنسبة للكثيرين في أوروبا في القرن التاسع عشر. لربما لم يكن من قبيل المصادفة أن رحلتي الأولى إلى العالم العربي - في نهاية الستينيات من القرن الماضي- قادتني إلى طنجة. في الأيام الأولى لمنظمة التقدم الدولية International Progress Organization، التي أسستها في النمسا عام 1972، كان لي تعاون مثمر مع المجتمع المدني والمشهد السياسي في المغرب، وخاصة فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية. أتذكر باعتزاز الاجتماعات المتعددة التي عقدتها مع الأمين العام لاتحاد المحامين العرب آنذاك، المرحوم عبد الرحمان اليوسفي، ومشاركتي في مؤتمر عربي حول الحل السلمي لحرب الخليج في الرباط عام 1985. بالنظر إلى التوترات الجديدة في علاقات أوروبا مع العالم العربي - بعد التدخلات العسكرية للغرب وبعدها بسبب الهجرة - أصبح التعاون والحوار بين المثقفين على ضفتي البحر الأبيض المتوسط أكثر أهمية. يجب على أوروبا أن تتجاوز إرث الحروب الصليبية والحقبة الاستعمارية بالكامل وإلى الأبد وتودع نزعة المركزية الأوروبية، التي لم يعد لها مكان في عالم اليوم متعدد الأقطاب. وهذا يتطلب لقاء «الند للند»، حوار حول المسائل الأساسية للفلسفة والثقافة والمجتمع، حيث يساهم كلا الجانبين في تفسيرهما وتقييمهما على قدم المساواة.**